تقليد عمرو بن العاص ولاية مصر

د. محمد أحمد محمد

مقدمة:



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين، وأفضل المرسلين، وبعد فهذا موضوع يتناول «تقليد عمرو بن العاص ولاية مصر» دعاني إلى كتابته طرح نموذج يتصل بنظم الحكم والإدارة في عهد الراشدين، ويعكس الشكل المثالي للحكم المركزي الذي وضع أساسه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسار على نهجه الخلفاء من بعده، ويظهر بوضوح ما كان يسعى إليه الخلفاء حينئذ لربط الأمصار المفتوحة بمركز الخلافة بما يحقق الوحدة تحت راية الخلافة بحيث يأتي حكم الولايات موصولاً باتجاهات مركز الخلافة السياسية والإدارية والعسكرية.

ونعني بولاية مصر الإمارة أو السلطة التي تولاها عمرو بن العاص في مصر بوصفه نائبا عن الخليفة، أما تقليد تلك الولاية، فيشير إلى المعنى الاصطلاحي الذي يحمل أن هناك عهداً استصدره الخليفة عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص بولاية مصر، وعلى الرغم من أن الوثائق التي زخرت بها المصادر قد خلت من الإشارة إلى ذلك العهد، فإن الدراسة تؤكد أن الخليفة عمر بن الخطاب أسند ولاية مصر إلى عمرو بن العاص بعقد الاختيار؛ الأمر الذي يشير إلى أنه قد ولاه الإمارة العامة، والتي جمع فيها عمرو بين الولايتين الخراج والصلاة.

ويعالج البحث نوع ذلك العهد الذي تولى بمقتضاه عمرو بن العاص ولاية مصر الأولى (٢٠ ـ٢٣هـ)، وقيامه باختصاصاته والدوافع التي كانت وراء اختيار عمرو لهذا الدور، ولا يتطرق بطبيعة الحال إلى الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مصر في أول عهود مصر بالإسلام حفاظا على وحدة الموضوع.

هذا وبدأت البحث بعرض للعوامل التي أسهمت في اختيار عمرو بن العاص قائدا لفتح مصر، وعالجتُ في الجانب الثاني إسناد تلك الولاية إليه بعد نجاحه في فتحها من قبل الخليفة، وأنهيت البحث بفصل تناولت فيه بالشرح قيام عمرو بن العاص باختصاصات عقد الاختيار

هذا والله من وراء القصد

اختيار عمرو بن العاص قائدا لفتح مصر:

يمتد البحث في أول عهود مصر بالإسلام إلى جوانب عديدة، وترتبط هذه الجوانب بالظروف التي عايشها العرب في ظل تطور الأحداث الناشئة المواكبة لحركة الفتوح الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما أنها تتصل بأعلام العرب ممن كان لهم دور في تثبيت أقدام العرب في بلاد الشام - بالذات - وممن كان منهم على صلة بالعناصر الاستيطانية في النواحي المزمع فتحها، ومدى ما وقف عليه الخليفة من جهود هؤلاء توطئة لقيامه باستنهاض نفر منهم أو قائد من بينهم ليسند إليه مهمة فتح هذه الناحية أو تلك في ظل ظروف ملائمة تستوجب الضرورة بهذا الفتح، فضلا عما يستلهمه هذا القائد من مواهب وقدرات عسكرية وأخرى عقلية تمهد له النجاح فيما أسند إليه من سبيل بشأن الفتح. ومن الثابت أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أسند مهمة فتح مصر إلى عمرو بن العاص، وكان نجاح هذا الأخير في إتمام هذه المهمة قد أبقاه في مصر واليًا عليها في أول عهود مصر بالإسلام، على أن اختيار الخليفة لعمرو ابن العاص للقيام بهذه المهمة له ما يبرره، ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان حريصا على اختيار أعلامه بهذا الخصوص وفق شروط دأب على التأكد من تثبيتها في رجال يعينهم من أعلامه، في وقت يلزم فيه أن يتخير ولاته وعماله لتعذر مباشرته لجميع الأمور ولئلا يشتغل عن التدبير [1] وروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال (ينبغي أن يكون في الوالي من الشدة ما يكون ضرب الرقاب عنده في الحق كقتل عصفور، ويكون فيه من الرقة والعفو والرحمة والرأفة ما يجزع من قتل عصفور. . .)[2].

على أن ما أسلفناه ينهض بنا إلى البحث في الظروف التي استنهضت الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بضرورة فتح مصر، واختيار القيادة العربية

اللازمة للقيام بهذا الفتح، كما أنها تنهض بنا إلى البحث في هذه القيادة. فيما هو لصيق بها من قدرات ومواهب، وما أثبتته في ميدان الجهاد، ومما يجدر ذكره أن الضرورة بفتح مصر، والشخص الفاتح جانبان متلازمان كل التلازم، متداخلان كل التداخل، ويصعب على الباحث الفصل بينهما، ذلك أن ثانيهما تمهيد طبيعي لتحقيق أولاهما وأن أولاهما مدخل طبيعي لاختيار ثانيهما.

كانت القيادة العربية في حاضرة الدولة تتخذ من الإجراءات والترتيبات التي تكفل نجاح عملياتها العسكرية وفق نظام محكم تمليه ظروف التوسع، كاتخاذ قرار بتأمين المواقع التي تم فتحها أو ضرورة غزو موقع جديد أو إرسال الإمدادات العسكرية لموقع ترى أنه في مسيس الحاجة إلى ذلك لإحكام القبضة العربية وهيمنتها، درءا للأخطار ومنعًا للحركات التي تستهدف كسر هذه الجهود من الخلف، ومن هنا كانت القيادة العربية تباشر عمليات التوسع في العراق وفارس والشام في صور متكاملة بحيث صار من اليسير وفق الضرورة العسكرية أن ترسل إمدادات عسكرية من العراق إلى الشام الأكثر صعوبة، وأعظم خطرًا في فتحها واحتوائها[٣]، ـ وعلى هذا المنوال ـ شرع المسلمون في فتح مصر تأمينًا لحدود الشام الجنوبية، واستكمالا لحركة التوسع وتثبيتا للسيادة العربية في الولايات البيزنطية.

كان لمصر من التمايز والخصوصية من حيث موقعها الجغرافي والسياسي ما يجعل للعرب المسلمين بالضرورة الرغبة في دخولها والاستيطان بها، وأول ما يقابلنا من أمر خصوصية مصر وتمايزها عن غيرها من المواقع أن موقعها السياسي إبان الفتوحات الإسلامية في غير بلاد الإسلام كان يتوسط على وجه التقريب تلك الولايات البيزنطية في الشام ومصر والمغرب والنوبة ونجاح المسلمين في فتح الشام دونما دخولهم مصر لا يتيح لهم فرصة التغلغل وبسط السيطرة على تلك

البلاد، إذ كان من اليسير أن يقوم الروم (البيزنطيون) من مصر باسترداد ما استولى عليه العرب في الشام، على حين أن نجاح العرب في دخولهم مصر يمكنهم من احتواء أي خطر قد يأتيهم من الغرب أو الجنوب، فضلا عن تشجيعهم على الانتشار بتلك الجهات إمعانا لتثبيت السيادة العربية، وهو أمر تفرضه ـ أيضا ـ الخطط العسكرية العربية التي تقضي بضرورة تأمين حدود مصر الغربية والجنوبية، مما جعل الحاميات البيزنطية جهة أفريقية مستهدفة للجنود العرب في مصر.

وتكشف إشارات المصادر على أن عمرو بن العاص قد أدرك أهمية مصر، بعد أن لمس أثناء فتحه لفلسطين خطورة ما بها من حاميات بيزنطية من شأنها أن تعرقل المسيرة الإسلامية في الفتوحات، فأشار على الخليفة عمر بن الخطاب بضرورة فتح مصر ولا يعني ذلك أن الخليفة غير راغب في فتحها أو أن فتحها لم يكن في حسبان الخليفة، بل إن الخليفة كان يدرك بطبيعة الحال أهمية مصر وضرورة فتحها بعد أن أحرزت الفتوحات الإسلامية نتائج موفقة في النواحي الشامية، وكل ما في الأمر أنه كان يلزم الحيطة والتمحيص والوقوف على الظروف المحيطة بالشام ومصر، واختيار الوقت المناسب والقائد الأمين الذي بوسعه القيام بعمليات الفتح فيما تمهد له قدراته، ولما أدرك الخليفة أن الضرورة تقضي بوجوب المسير إلى مصر وعلى وجه السرعة أذن لعمرو بن العاص في المسير إليها.

ومما لا شك فيه أن عمرو بن العاص كان أحكم الشخصيات الإسلامية آنئذ للقيام بهذه المهمة، وأن الخليفة عمر بن الخطاب كان على بينة من أمره، على الرغم من أن عمرو بن العاص لم يكن إذ ذاك يمثل القيادة بمثل ما كان يمثله كبار قواد الدولة الذين تولوا فتوح الشام والعراق، الأمر الذي جعل الخليفة يتردد

بضع لحظات، وسرعان ما أذن إليه بالمسير إلى مصر [٤] ذلك أنه قد أدرك في شخصه كفاتح أسبابًا جعلته قريب الصلة بمصر المراد فتحها وبالشام التي تيسر له هذا الفتح، وبالخطط العسكرية البيزنطية التي واجهها في الشام، مما جعله أكثر ثقلا في توجهاته العسكرية، وتطويق واقتحام الحصون البيزنطية في مصر [٥].

أما مصر، فكانت صلة عمرو بن العاص بها في الجاهلية عظيمة الأثر ومهدت له السبيل في وقت لاحق، فصار حينما دخلها للفتح خبيرا بدروبها وأحوالها، ويذكر ابن عبد الحكم [٦] (وكان عمرو بن العاص قد دخل مصر في الجاهلية وعرف طرقها، ورأى كثرة ما فيها) ويذكر المقريزي [٧] عن عمرو بن العاص أنه (كان تاجرا في الجاهلية وكان يختلف بتجارته إلى مصر ـ وهي الأدم والعطر ـ ثم ضرب الدهر ضرباته حتى فتح المسلمون الشام، فخلا بعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فاستأذنه في المسير إلى مصر. . .).

أمامنا رواية ذكرها ابن عبد الحكم [٨] عن يحيى عن خالد العدوي عن ابن لهيعة حول سبب دخول عمرو بن العاص مصر، وتشير إلى أن عمرو بن العاص كان قد قدم بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش، وبينما هو يرعى إبله وإبل أصحابه إذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية، فاستجاره هذا الأخير وطلب منه أن يعينه على ما مر به من شدائد الأيام، فسقاه عمرو ماء، وأنقذه من ثعبان كاد أن يفتك به، فحفظ له الشماس حسن صنيعه، وطلب منه أن يصحبه إلى مصر ليعطيه أجر هذا الصنيع واعدًا إياه بأنه سوف يرى بلدا موفور الثراء، فانطلق عمرو بن العاص مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الاسكندرية (فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها، وما بها من الأموال والخير ما أعجبه، وقال ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من أموال، ونظر إلى

الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها . . .) واصطحب الشماس عمرو بن العاص لحضور احتفال بعيد عظيم كان قد وافق عقده دخول عمرو الاسكندرية ، وجلس عمرو والشماس في مجلس حضره جمع من الناس احتفالا بهذا العيد ، وكان هؤلاء يترامون بالكرة ، وإذا بالكرة هذه قد أقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو وكان المتعارف عليه بين هذا الجمع أنه إذا هوت هذه الكرة ووقعت على غرار ما وقعت في كم عمرو يكون صاحبها حاكما لمصر.

وعلى الرغم من أن هذه الرواية لا تتخذ سندا من الأسانيد المؤكدة الصحيحة[٩]، مما يجعلنا نرتاب في صحتها تاريخيًّا إلا أنها لا تخلو من فائدة من حيث إنها تعطينا دلالة على أن عمرو بن العاص قد جمع سبيل الوقوف على الطرق المؤدية إلى مصر، وعلى أهم معالمها ومدنها فضلا عن معرفة أحوالها عن كثب[١٠] كما أن هذه الرواية تشير إلى أن عمرو بن العاص قد ارتاد النواحي الشامية في الجاهلية بقصد التجارة، الأمر الذي تؤكده الحقائق التاريخية، فكان تجار العرب قبل ظهور الإسلام يفدون غالبا كل صيف من مكة إلى فلسطين [١١] وكانوا يحملون السلع ومتاجر الشرق الأقصى إلى بلدان البحر المتوسط [١٢] كما كان تجار العرب يلتقون في فلسطين مع تجار مصر وغيرهم من المصريين الذين دأبوا على زيارة الأماكن المسيحية المقدسة في بيت المقدس [١٣] وكانت المناطق الفسيحة الممتدة من جنوب فلسطين إلى أطراف الدلتا تعمرها عناصر عربية، ولم يكن للبيزنطيين فيها إلا حاميات قليلة أهمها العريش [١٤] الأمر الذي مهد لعمرو بن العاص أن يجري اتصالاته خلال رحلاته التجارية مع أقرانه من العرب، ومهد له ـ أيضا ـ الوقوف على أحوال هذه النواحي قبيل دخوله إياها بقصد الفتح.

ولما بعث الخليفة أبو بكر الصديق عمرو بن العاص في جملة من بعثه من أمراء

الجيش إلى الشام، شهد عديدًا من المواقف في ساحة القتال مع الروم وكانت له (الأراء السديدة والمواقف الحميدة)[١٥] ونخص بالذكر جهوده الموفقة في فتح فلسطين[١٦] التي كفلت له الخصوصية والتمايز بين أقرانه من أمراء الفتوح حتى بات على أثر ذلك شأن توليه لفتح مصر أمرا ضروريًا، حيث أثبت فعالية في خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ في فتح حصون الروم، ففتح غزة في عهد الأول ونابلس واللّد وبيت جبرين، واتخذ بهذه الأخيرة ضيعة تدعى «عجلان» باسم مولى له[١٧] كما فتح قنسرين، وسواحل الأردن[١٨]، كما توجه بعد اليرموك إلى إيليا (بيت المقدس) بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب[١٩]، وقيل أنه توجه إليها بعد أن أشار عليه أبو عبيدة بن الجراح بذلك[٢٠]، وأثبتت هذه الناحية مقاومة، ولم تستسلم ـ على نحو ما قيل ـ إلا في العام السابع عشر من الهجرة، وطلب أهلها الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل الشام، على أن يكون المتولى لهذا الصلح الخليفة عمر بن الخطاب، فنزل الجابية[٢١] ومنها إلى «إيليا» فأنفذ الصلح[٢٢].

ويكشف لنا الفتح العربي لفسطين أن عمرو بن العاص قد أتيح له من خلال قيامه بهذا الفتح الوقوف على أهمية مصر لسلامة الفتوح الإسلامية بالشام[٢٣] ومن الشائع في المصادر العربية أن عمرو بن العاص قد أحرز نجاحًا كبيرًا في توجيه أنظار الخليفة إلى خطورة قائد الروم «الأرطبون»[٢٤] حيث كتب إليه يخبره بما نشره هذا القائد من جنود في بيت المقدس، وأوضح له خطورة الموقف في فلسطين على اثر انسحاب «الأرطبون» إلى مصر واتخاذها قاعدة له لعرقلة الفتح الإسلامي في الشام، حيث عبأ جيوشه، وأخذ يعمل على حماية قيسارية للحيلولة دون وقوع «ايليا» في قبضة عمرو بن العاص، ومن الثابت أنه خرجت بهذا الخصوص بعثة عسكرية سنة ١٧هـ من مصر إلى شمال الشام توطئة

لتطويق شامل للجيوش الإسلامية بالشام، فاستولى الروم على أنطاكية[٢٥]، وحاصروا حمص[٢٦]، حيث كان أبو عبيدة بن الجراح يجوب شمال الشام، الأمر الذي دفع بأبي عبيدة إلى أن يكتب إلى الخليفة بأخبار الهجوم البيزنطي، فأشار عليه الخليفة عمر بضرورة أن تأتيه النجدة بإمرة القعقاع بن عمرو وأن يحاصر أهل الجزيرة الذين مالئوا الروم في حصار أبي عبيدة، وسرعان ما قدم الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه من المدينة إلى الجابية لنجدة أبي عبيدة، غير أن المسلمين أنزلوا هزيمة بحملة الروم وأجبروها على الارتداد قبل وصول الخليفة إلى الجابية[٢٧] وحين وصوله كتب إليه أبو عبيدة يخبره بالنصر، وعقد الخليفة مؤتمره من بعد ذلك في الجابية.

وتشير الروايات على أن عمرو بن العاص كان القائد الأوحد الذي أشار على الخليفة عمر بن الخطاب في الجابية بأهمية فتح مصر لتأمين حدود الشام الجنوبية حيث قام إليه عمرو (فخلا به فقال يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر، وحرضه عليها، وقال إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين، وعونا لهم، وهي أكثر الأرض أموالا، وأعجز عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب، وكره ذلك، فلم يزل عمرو يزين أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك، فعقد له على أربعة آلاف رجل، وقيل بثلاثة آلاف وخمسمائة[٢٨].

وتشير الروايات العربية - أيضا - على أن الخليفة عمر بن الخطاب لم ير إزاء رغبته في فتح مصر أميرا كافيا لهذه المهمة سوى عمرو بن العاص، وأنه على الرغم من تخوفه من فتحها قد بلغ شأوا كبيرا إلا أنه لم يسند مهمة فتحها لغيره من القيادات الإسلامية التي أحرزت نجاحا هائلا في الجبهات الشامية، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن الخليفة نفسه قد كلف عَمْرًا بأن يختار ما يراه

مناسبًا من العناصر المتحاربة في الشام للخروج معه إلى مصر قائلا لـه (اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خف معك، فسر به. . .)[٢٩] ومن غير الثابت أنه كانت هناك شخوص من أقران عمرو بن العاص تمثل بدائل يختار من بينها الخليفة لإمرة الجيش الزاحف لفتح مصر في حالة إذا ما عدل الخليفة عن قيام عمرو بن العاص بهذه المهمة حتى في ذلك الوقت الذي بلغ فيه تخوفه منتهاه، بدليل أنه لم يأمر بعزل عمرو بن العاص واستبداله بغيره حينما توجس من خطورة فتح مصر بإشارة من عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ـ وما أبداه من آراء في شأن عمرو بن العاص جاء فيها (أن عمرا الجريء، وفيه إقدام، وحب للإمارة فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا. . .)[٣٠]، وكل ما في الأمر أن الخليفة إزاء تخوفه هذا كتب إلى عمرو قائلا (إن أدركك كتابي قبل أن تدخل إلى مصر، فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامض لوجهك)[٣١].

ولا ننس في معرض حديثنا عوامل أخرى تتصل بشخص عمرو بن العاص وتظهر لنا المصادر أن الخليفة عمر بن الخطاب كان ينظر إلى عمرو بن العاص بوصفه رجلا يملك من السمات التي تعينه على اجتياز العقبات، ومما قيل أنه نظر إليه يوما فقال (ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا)[٣٣] وقيل ــ أيضا ــ أن دهاة العرب في الإسلام أربعة، منهم عمرو بن العاص، ويذكر الشعبي (وأما عمرو فللمعضلات)[٣٤]، ولا يخفى علينا ما كان يتوافر في شخص عمرو بن العاص من صفات وفي ذلك يذكر الشعبي[٣٥] عن قبيعة ابن جابر (ما رأيت رجلا أبين قرآنا ولا أكرم خلقا، ولا أشبه سريرة بعلانية منه).

يتضح لنا مما تقدم أن الأحداث التي واكبت فتح فلسطين، فضلا عما كان للقيادات الإسلامية وبالذات عمرو بن العاص ـ من أخبار في الجاهلية قد مهد

لعمرو بن العاص أسباب ظهوره مما جعل الخليفة عمر بن الخطاب يقبل على اختياره لإمرة الجيش الزاحف لفتح مصر، وجعله من بعد ذلك واليًا عليها أو نائبًا عنه في حكمها.

إسناد ولاية مصر إلى عمرو بن العاص :

لم تكن البداية لهذه الولاية - بطبيعة الحال - بإسناد الخليفة عمر للقائد عمرو بتولي مهام فتح مصر في مؤتمر الجابية سنة ١٧هـ، ولم تكن أيضا بمسير عمرو ابن العاص إليها. بل جاءت مقرونة بفتح مصر الذي به انتقلت إلى عمرو مهام الحاكم البيزنطي العام في مصر، ووضع عمرو به نهاية لمرحلة طويلة من السيادة البيزنطية على مصر وبداية لمرحلة جديدة تمثل أول عهود مصر بالإسلام.

ويستلزم ما أسلفناه من إشارة البحث في الروايات التي دارت حول التاريخ الذي تم فيه فتح مصر لنصل بصورة مؤكدة إلى بداية التاريخ لأول عهود مصر بالإسلام. والذي يشير بطبيعة الحال إلى بدء قيام عمرو بن العاص بولاية مصر.

تعود أقدم الروايات العربية في شأن مسير حملة عمرو بن العاص إلى مصر إلى ما أورده ابن عبد الحكم والطبري وتشير هذه الروايات جملة وتفصيلا إلى أن عمرو بن العاص قد سار بجيشه من قيسارية بفلسطين في سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، وبلغ العريش في أواخر تلك السنة، ومنها اتجه إلى الفرما في أوائل سنة ١٩هـ-٦٤٠م[٣٦] وواصل سيره متغلبا على ما صادفه من مقاومة حتى بلغ أم دنين، ومنها زحف إلى حصن بابليون[٣٧]، على أن المسلمين قد وجدوا مقاومة عنيفة، وأحسوا بصعوبة فتح الحصن، فعهد عمرو لفريق من جنده بحصار الحصن، على حين اتجه هو بحملة استكشافية قصيرة الأجل في الجهات الغربية حيث الفيوم وجهات الصعيد الأدنى، إلى أن بلغه المدد من قبل الخليفة عمر بن الخطاب، وانتهى الأمر بتطويق المسلمين للحصن، وطلب المقوقس الصلح،

غير أن الامبراطور البيزنطي «هرقل» أعلن رفضه لهذا الصلح، فنهض المسلمون إلى تطويق الحصن واقتحموه في محرم سنة ٢٠ هـ وقيل في ربيع الأول من نفس السنة ـ إبريل سنة ٦٤١ [٣٨]، وسرعان ما اتجه العرب من بعد ذلك لفتح مدينة الاسكندرية، فحاصروها ثلاثة أشهر، وانتهى الأمر بعقد الصلح الذي كفل للمسلمين دخول المدينة [٣٩].

وتتفق المصادر المسيحية القديمة مع ما ذهب إليه كل من ابن عبد الحكم والطبري على أن فتح مصر كان في سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م [٤٠]، كما أنه لم يختلف مؤرخو الفتوحات حول ذلك التاريخ اللهم إلا ما خالف به البعض منهم الآخر في شأن بدء سير الحملة، فالبعض يرى أن ذلك البدء كان في سنة ١٩ هـ مخالفا في ذلك الآخرين الذين يرون أنه بدأ سنة ١٨هـ [٤١].

وأخذ عديد من الكتّاب والمؤرخين بصحة ما أورده ابن عبد الحكم والطبري من أن فتح مصر كان في سنة ٢٠هـ ومنهم ابن قتيبة [٤٢] وابن الأثير [٤٣]، وابن كثير [٤٤] وابن خلدون [٤٥]، والمقريزي [٤٦] على حين أورد هؤلاء ـ أيضا ـ روايات أخرى ذكرها الطبري ولا يجمعون عليها لأن هذا الأخير قد أوردها دون الأخذ بها، ومن ذلك ما أشير إلى أن ذلك الفتح كان في سنة ١٦هـ [٤٧] أو سنة ٢١هـ [٤٨] أو سنة ٢٥هـ [٤٩].

على أن التحقيق يثبت صحة ما أجمعت عليه الروايات العربية والمصادر المسيحية القديمة من أن فتح مصر ـ ويقصد به فتح حصن بابليون ـ كان في سنة ٢٠هـ، ذلك أن الشواهد التاريخية وفق ما فرضته ظروف الفتوحات أيام الخليفة عمر بن الخطاب يؤكد أن مسير الحملة قد جاء بعد مؤتمر الجابية سنة ١٧هـ، وليس قبل ذلك، الأمر الذي يدحض القول بأن الفتح كان سنة ١٦هـ [٥٠]، كما أن الحملة قد أخذت في طريقها باتجاه فرع النيل الغربي فترة

زمنيـة إزاء مـا قـابل العـرب من مقـاومة بيـزنطيـة في الفـرما وبلبيس وأم دنين وبابليون، واستغـرقت هذه المسافات إلى أن تم فتح الحصن أكثـر من عام الأمر الذي يغاير ما أورده البلاذري[٥١] عن أن مسير الحملة قد بدأ سنة ١٩هـ وليس من الصحيح أن يترك المسلمون مصر دون فتحها من بعـد اتخاذهم القرار بذلك في الجابية سنة ١٧هـ[٥٢] إلى أن تسير الحملة سنة ١٩هـ في وقت أدركوا فيه أهمية مصر ومناعتها، وخطورة حامياتها البيـزنطية، كما أن ما أسلفناه يدحض بطبيعة الحال ما أورده ابن خلدون[٥٣] من إشارات تفيد بأن الفتح كـان في سنة ٢٢ هـ و ٢٥هـ، والصحيح أن المسلمين قـد فتحوا الإسكندريـة للمرة الثانيـة في هذه الأخيرة في عهد الخليفة عثمان بن عفان[٥٤].

ويمكن القول ـ اعتمادا على ما أسلفناه ـ أن ولاية عمرو بن العاص الأولى قد بدأت في المحرم أو ربيـع الأول سنة ٢٠ هـ بعد أن فتح العرب حصـن «بابليون» وعقدوا الصلح مع «قيرس» الحاكم البيزنطي في مصر.

وقد يظن البعض أن عمـرو بن العاص لم يكن إذ ذاك قـد احتوى كل أقـاليم مصر ـ وبالذات الإسكنـدرية عاصمة مصر البيزنطية الأمـر الذي كان من شأنه أن يؤجل قيـام عمرو بن العاص في مصر بـوصفه نائبًا عن الخليفة، باعتبـاراته كان بمقـدور الروم أن يستردوا قـواهم ويجبروا العرب على الارتـداد، غير أن هذا الظن فيما يـذهـب إليه البعض لا يتفق وإسهـامات العـرب من جهود مـوفقة في فتح حصن بابليـون الذي بـه أخذت الديـار المصرية جملـة وتفصيلا بما في ذلك الإسكندريـة طريقهـا إلى الوقـوع في قبضة العـرب المسلمين، وسرعان مـا تحدد مستقبل مصر السيـاسي بمقتضى معـاهدة بـابليـون الأولى التي عقـدت عقب استيلاء العرب على الحصن في ٢٠هـ/ ٦٤١م[٥٥].

وكان صلح بـابليون خـاصًـا بأهل مصر أو الأقبـاط ويتبين من نصوصـه أن

المقوقس كان يحسب نفسه من أهل مصر وليس ممثلا للإمبراطور البيزنطي، وبمقتضى ذلك الصلح صالح العرب أهل مصر على أن يعطوا الجزية، وكان المصريون بمقتضاه مسؤولين عن الأمن في نواحيهم (فعليهم ما جنى لصوصهم)، كما يتضح من بنود الصلح أن نفرا من أهل النوبة استجابوا لهذا الصلح، ففرضت عليهم ضريبة من الماشية والخيل (٥٦).

وكان صلح بابليون عاملا هامًا يسّر على العرب احتواء كافة الديار المصرية في وقت قصير الأجل، فكان بفعل شروط ذلك الصلح قد خرج القبط إلى جانب العرب حينما شرعوا في التوجه إلى الإسكندرية، فأصلحوا لهم الطريق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق وصارت لهم ـ القبط ـ أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم) (٥٧) وسرعان ما وقعت في قبضة المسلمين كافة الحصون الفرعية في الفيوم(٥٨) والصعيد الأدنى والأوسط فيما بين سنتي ٢١هـ، ٢٢هـ، وبذلك تم فتح مصر كلها في نحو سنتين وبضعة أشهر.



وضع النبي ﷺ نظام الدولة الإسلامية، فكان ينيب عمالا على القبائل وعلى المدن يقومون بإمامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة(٥٩)، ولما ولِّي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الخلافة أقر عمال الرسول ﷺ على أعمالهم، كما سار على نفس نهج الخليفة عمر بن الخطاب، إذ رأى بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية أن يقسم البلاد أقسامًا إدارية كبيرة ليسهل حكمها والإشراف على موارد ثروتها، وعين عليها عمالا أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة(٦٠).

كان إقليم أفريقية يقع ضمن التقسيمات الإدارية التي وضعها الخليفة عمر ابن الخطاب، وكان يشتمل على ثلاث ولايات، مصر العليا ومصر السفلى وغربي مصر وصحراء ليبيا، وهي نفس الجهات التي امتد إليها سلطان المسلمين

في أول عهود مصر بالإسلام بعد أن دخلت في حوزة الجند المسلمين بقيادة عمرو ابن العاص [٦١].

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يسند حكم الولاية إلى عماله بعهد منه بعد أن يشهد عليه رهطًا من المهاجرين والأنصار، على ألا يركب برذونا ولا يأكل نقيا ولا يلبس رقيقًا، ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس [٦٢].

واتضح لنا مما تقدم أن الخليفة عمر بن الخطاب لم ير غضاضة من إسناد ولاية مصر إلى عمرو بن العاص لما لمسه من جهوده الموفقة في فتحها وضمه إياها إلى حظيرة الدولة الإسلامية، غير أن المصادر التي أمامنا قد خلت من الإشارة إلى العهد الذي أقر فيه الخليفة إسناده لعمرو بولاية مصر، لكن إشارات هذه المصادر تؤكد أنه عينه عاملا عليها [٦٣] بعد أن أتم فتحها، وليس قبل ذلك، ونستخلص من إشارات البلاذري [٦٤] ما ينهض دليلا على ذلك، فيذكر أنه لما أبطأ الفتح على عمرو أمده الخليفة عمر بن الخطاب بنجدة عسكرية تحت إمرة الزبير بن العوام بن خويلد وأن الخليفة عمر بن الخطاب عرض على الزبير ولاية مصر قبل خروجه قائلا له (يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر، فقال لا حاجة لي فيها، ولكني أخرج مجاهدا وللمسلمين معاونا، فإن وجدت عمرا قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل، فرابطت به و إن وجدته في جهاد كنت معه فسار على ذلك)، أي إنه سار مجاهدا معاونا لعمرو بن العاص في إتمام عمليات الفتح، ولم ينازعه الرغبة في الولاية.

وقد يظهر من النص أن الخليفة عمر بن الخطاب توجس من عمرو بن العاص، فأوفد الزبير بن العوام ليشاركه في عمليات الفتح حتى يختاره واليًا على مصر بعد فتحها، أو أن الخليفة عمر بن الخطاب عرض على الزبير ولاية مصر تشجيعا له واستنهاضا ليخرج لنجدة الجند العرب ليسهل عليهم فتح مصر،

ومهما يكن من أمر هذه التأويلات فإن ما ورد على لسان الزبير يؤكد أن القادة العرب كانوا يسعون إلى تحقيق الهدف من الفتح دونما سعي منهم إلى الإمارة.

والأمر الجدير بالاعتبار أن ما كان يراسل به عمرو بن العاص الخليفة بعد صلح بابليون يشير إلى أول ما كان يتخذه المسلمون من سياسات في شأن حكم مصر كما أن ما قام به الخليفة من إقرار لما كان يراسله فيه القائد عمرو دليل واضح على أن الخليفة قد أقر عمرو في تصريف شؤون مصر بعد فتحها و إفصاح منه بأنه قد أنابه عليها أو ولاه إياها متغلبا على ما كان يبديه من مخاوف إزاء خطورة الفتح حينما شرع عمرو بالمسير لفتح مصر(٦٥)، وفي ذلك إشارة على أن الخليفة قد استوثق من أمر عمرو بن العاص للقيام بمهام الحكم في مصر بمثل ما كان يستوثق في أمره حينما أذن له بالمسير لفتحها.

وهناك ما يفيد بأن الخليفة عمر بن الخطاب قد أسند ولاية مصر إلى عمرو ابن العاص بعد الفتح بعهد، واشترط عليه بأن لا يلبس رقيقا ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس؟ وأنه كان يراسله إذا ما أحس بشيء يعارض ما اشترطه في عهده إليه بالولاية، ومما يذكر في هذا السبيل أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص ما نصه (أنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر. . .)(٦٦).

على أنه لا ينبغي أن ينظر إلى مصر بعد انضمامها إلى الدولة الإسلامية من حيث كونها خاضعة لدولة تعتمد على شعب تحكمه النزعة الاستعلائية كما كانت حال مصر حينما كانت تابعة للدولة الرومانية التي جعلت شعوبها أجناسا مقهورة مغلوبة على أمرها، بل كانت مصر بعد أن فتحها العرب المسلمون تتبع لدولة عامة يقوم بشؤونها المسلمون عامة لا يفرق بينهم في الحقوق والواجبات جنس أو مكان، فكان كل مسلم في هذه الدولة يعد من أصحابها وله الحق في

ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها، وسادت هذه الأسس منذ عهد الرسول ﷺ حين تولى المسلمون من غير العرب وظائف عامة أو أسهموا في عهد الراشدين في التشريع وظلوا على تلك الحال في العصور اللاحقة حتى بلغ بهم الأمر أن قادوا الجيوش، وتولوا الولايات، ويمكن القول إن ولاية مصر الأولى في ظل الإسلام كانت معناها أنها أصبحت جزءا من هذه الدولة العامة (الدولة الإسلامية) وقاعدة لامتدادات جديدة لدولة الإسلام (٦٧) الأمر الذي يؤكده ما طرأ على مصر بدخول العرب المسلمين إليها من سمات ترتبط بإقرار الحقوق والواجبات للحكام والرعية (٦٨).

وصفوة القول إن عمرو بن العاص صار نائبا عن الخليفة عمر بن الخطاب منذ سنة ٢٠هـ، واضطلع بمهام هذه النيابة، وأصبح مسؤولا أمام الخلافة وعليه أن يسير وفق اتجاهات مركز الخلافة على النحو الذي سوف نشير إليه في الصفحات التالية.

قيام عمرو بن العاص باختصاصات عقد الاختيار:

قام الخليفة عمر بن الخطاب بوضع النظام السياسي للدولة الإسلامية ونظم إداراتها، وكان يرمي إلى تماسك البلاد المفتوحة وخضوعها للإدارة المركزية في حاضرة الدولة، فاختار ولاته من العرب، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين.

اتخذ الخليفة عمر بن الخطاب الشكل المثالي للمركزية سبيلا للارتقاء بالدولة، وكان عماله يستمدون منه سلطتهم، لذلك كان أمراء الأقاليم في عهده يسمون عمالا بمعنى أنهم ليسوا مطلقي السلطة ـ وبالذات ـ في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية، وقد استعملت كلمة والي فيما بعد.

ولدينا من إشارات المصادر مـا يفيد بأن عمرو بن العاص كـان يعرف بعامل مصر من قبل الخليفـة عمـر بن الخطاب، ومن ذلـك ما ذكـره الطبري [٦٩] أن عمرو بن العاص كان (عامل عمـر بن الخطاب على مصر)، ومن ذلك ـ أيضا ـ ما أورده أبو المحاسن [٧٠] من أن عمـرو بن العاص (استمـر على عمله بمصر، وشرع في بناء جامعه . . .).

وأورد الطبري جانبا من خطب الخليفة عمـر بن الخطاب، ومن ذلك (يا أيها النـاس إني والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربـوا أبشـاركم، ولا ليأخذوا أمـوالكم ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم . . .) [٧١].

ومن ذلك مـا رواه الطبري [٧٢] من أن الخليفـة عمر بـن الخطاب (كـان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم قـائلا (إني لم استعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم ولا على أبشـارهم، إنما استعملتكم عليهم لتقيمـوا بهم الصلاة، وتقضوا بينهم بالحق . . .).

وعرف من أشكال الإمارة نوعان، إمارة عامة وإمارة خاصة، (فالعامة نوعان إمارة استكفاء بعقد عن اختيار وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار [٧٣]، وكانت إمارة العمال على إماراتهم في العهد الأول عامة، وتأتي إمرة عمرو بن العاص على مصر نموذجـا يمثل هذا الشكل من الحكم، ذلك أنه تقلـدها باختيـار الخليفة عمـر بن الخطاب، ويحدثنـا الماوردي عن عقد الاختيـار عند تعيين العمال بأنـه (يشتمل على عمل محدود ونظر معهـود، والتقليد فيها يفوض إليـه الخليفة إمارة بلد أو إقليم وولاية على جميع أهله، ونظرا في المعهود من سائر أعماله، فيصير عام النظر فيما كان محدودا من عمل، ومعهودا من نظر، فيشتمل نظره فيه على سبعة أمور [٧٤] أحدها النظر في تدبير الجيوش. . . والثاني النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام والثالث جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها. .

والرابع حماية الدين. . . والخامس إقامة الحدود. . . والسادس الإمامة في الجمع والجماعات. . . والسابع تسيير الحجيج).

والأمر الجدير بالاعتبار أن عقد الاختيار من جانب الخليفة عند تعيين العمال يشكل جانبا هاما نحو تحقيق الشكل المثالي لمركزية الحكم، وعلامة بارزة لتمثيله أصدق تمثيل، وباستقصائنا للإشارات الواردة في بطون الكتب يمكن القول أن عمرو بن العاص اضطلع بهذه الأمور السبعة ـ التي أوردها الماوردي ـ باعتباره عاملا على مصر في ظل حكم مركزي يخضع خضوعا تاما للخليفة عمر بن الخطاب في حاضرة الدولة «المدينة المنورة».

ومن ذلك أن عمرو بن العاص كان إبان ولايته على مصر يقود الجيوش حينما أزمع المسير إلى الإسكندرية وبرقة وطرابلس [٧٥] وكان يتولى مهام الجباية وتصريفها امتثالا لما يصدر إليه من حاضرة الخلافة[٧٦] كما كان يختص بالإمامة في الصلاة وحماية الدين بوصفه نائبا عن الخليفة [٧٧]، وكان يبعث بالقيادات لإتمام عمليات الفتح، وأورد البلاذري [٧٨] أنه لما فتح عمرو بن العاص (الفسطاط) مصر وجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس وخارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم، وأشمون وأخميم وقرى الصعيد، وعمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط، وأورد ابن الأثير [٧٩] في أحداث سنة ٢١هـ أن عمرو بن العاص بعث عقبة بن عامر الفهري إلى زويلة، ففتحها صلحا.

ومن ذلك ـ أيضا ـ أن عمرو بن العاص كان يستخلف نوابا عنه إذا ما أزمع المسير للفتح، فاستخلف على مصر خارجة بن حذافة وسار هو لفتح الإسكندرية[٨٠]، ولما فتحها سنة ٢١هـ استخلف عليها عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي في رابطة من المسلمين وانصرف إلى الفسطاط[٨١].

ومن ذلك ـ أيضا أن عمرو بن العاص ولى سنة ٢١هـ أربعة من أقرانه على

الخطط وهم معاوية بن حديج التجيبي وشريك بن سمى الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وجبريل بن ناشرة المعافري، فقصلوا بين القبائل[٨٢].

ومن ذلك ــ أيضا ــ أن عمرو بن العاص كان يفصل بين المتخاصمين، ويقضي بين الناس إذا ما أشكل عليه أمر يخص القضاء، وظل على تلك الحال إلى أن عين الخليفة عمر بن الخطاب قبيل وفاته قيس بن أبي العاص السهمي قاضيا على مصر[٨٣]، ومما يجدر ذكره أن القضاء في الدولة الإسلامية كان من الأمور الخاصة بالخلافة، غير أن الخليفة عمر بن الخطاب اضطر إزاء اتساع رقعة دولته أن يفوض القضاء إلى غيره كما كان يفوض إلى عماله حكم الولايات المفتوحة[٨٤].

ولا ننس أن سلطة عمرو بن العاص امتدت إلى برقة وما يليها بعد أن سار إليها بنفسه، وهناك إشارات كثيرة تؤكد سلطته وإشرافه عليها تأمينا لمركز المسلمين في مصر[٨٥].

وكان عمرو بن العاص يحرص على أن يكون قيامه بمهام ولايته في إطار خضوعه لمركز الخلافة محرزا بذلك شكلا مثاليًا للحكم المركزي الذي شاع في الدولة الإسلامية، وتأتي تلك الرسائل المتبادلة بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص في شأن مصالحة أهل مصر مقابل أدائهم للجزية دليلا وشاهدا على ذلك[٨٦].

وتفيد إشارات المصادر أن الخليفة عمر بن الخطاب كان حريصا على تحقيق هذا الشكل المثالي في الحكم، فلا يترك عماله وشأنهم، بل كان يسعى إلى أن يرقب أحوال الولايات عن كثب ومما قيل إنه قال (لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولا، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى

الجزيـرة فأقيم بها شهريـن، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهـرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا)[٨٧].

ويتجلى لنـا خضـوع عمـرو بن العـاص ومسـؤوليتـه أمـام الخلافـة فيما رواه الطبري[٨٨] من أن عمرو بن العـاص رد على صاحب الإسكندريـة حينما عرض عليه أن يؤدي إليـه الجزية مقابل أن يرد إليه سبايـا أرضه قائلا (إن ورائي أمير لا أستطيع أن أصنع أمـرا دونـــه، فإن شئت أن أمسك عنك وتمسك عني حتى أكتب إليه بـالذي عرض عليّ، فإن هـو قبل ذلك منك قبلت، وإن أمرني بغير ذلك مضيت لأمــره. . .) فكتب عمــرو بن العــاص إلى الخليفـة عمــر بن الخطاب، فجـاءه كتابـه، ما نصه (. . . ولعمـري لجزية قـائمة تكـون لنا ومن بعدنا من المسلمين أحب إليّ من فيْ يقسم ثـم كأنه لم يكن. . . فبعث عمرو بن العاص إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين. . .)[٨٩].

وكان بمقتضى صلح بـابليـون الأول أن أخـذ المسلمــون يشرعـون في نشر سياستهم المالية، وأخذ عمرو بن العـاص يراسل الخليفة عمر بن الخطاب بما كان يتخذه وفق ما تفرضه ظروف الفتح وعقد الصلح الأول، فكتب إليه في شأن الجزيـة والرزق من الموارد العينيـة التي ألزم بها العـرب القبط إلى جـانب مقادير الجزية[٩٠] فأجازه الخليفة[٩١] عمر بن الخطاب، وصارت الأرض بمقتضى هذه المراسلات أرض خـراج، ولما فرغ المقـوقس من أمر نفسـه (ومن معه في مـدينته صـالح عن جميع أهل مصر على مثل صلح أليـوتـه ـ صلح بـابليـون ــ فرضـوا به)[٩٢].

ومما يدل على أن عمرو بن العاص في مصر كان لا يـرسم سياسة اقتصادية أو إدارية إلا بعد الرجوع إلى الخليفة عمر بن الخطاب أنه عارض الزبير بن العوام في أمر تصريف الجباية قبل أن يأذن له الخليفة عمر[٩٣]، كما راسل الخليفة ـ أيضا

ـ حينما ألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جُبَّة صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخُفَيّه في كل عام على أن لا تباع نساؤهم وأبناؤهم ولا يسبوا وأن تقر أموالهم(٩٤).

وكان عمرو بن العاص يكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبلغه بما فتح الله عليه موضحا في رسائله ما قام به من انجازات وما اتخذه من خطط وسياسة بعد كل فتح(٩٥).

ويظهر لنا حرص عمرو بن العاص على تصريف حكمه دون ألاّ يتجاوز ما أسند إليه من مهام من حيث كونه نائبا عن الخليفة امتثالا لعقد الاختيار فيما كان يخاطب به الخليفة عمر بن الخطاب بلقب أمير المؤمنين(٩٦) الأمر الذي يؤكد أن قيامه بالإمارة أو السلطة في مصر مرهونا باتجاهات أمير المؤمنين «الخليفة عمر بن الخطاب»، وإضافة المؤمنين إلى أمير تعطي اللقب صفة دينية إلى جانب سمته السياسية ليصور بذلك مهمة الخلافة الإسلامية ومعناها تصويرا حقيقيًّا، كما أن لفظ أمير يرمز إلى أن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة حربية، وبذلك يتمشى اللقب مع عهد الفتوح لما فيه من معنى السلطة الحربية إلى جانب السلطة الإدارية(٩٧).

ومما لا شك فيه فإن في مناداة عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب بأمير المؤمنين اعتراف منه ودليل على تبعيته لسلطته الدينية والحربية والإدارية، وأورد القلقشندي(٩٨) نصوصا حول ما جرت به العادة عند تحرير الرسائل من قبل عمال الولايات لمركز الخلافة في عهد الراشدين فيذكر (وكان الرسم فيها أن يكتب لعبد الله فلان أمير المؤمنين سلام عليك، فأني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد...).

وكان عمرو بن العاص يؤكد في رسائله إلى الخليفة تبعيته في حالة إذا ما

توجس منه درءا لأية شبهة وتبيانا لإخلاصه لأمير المؤمنين، ومن ذلك ما أورده القلقشندي[99] فيما يدور حول كتاب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب، ما نصه (لعبد الله عمر أمير المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد، أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مالي وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي وأني أعلم أمير المؤمنين أني ببلد[100] السعر فيه رخيص وأني أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس... ووالله لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك...).

وكان عمرو بن العاص يحرص في رسائله إلى الخليفة عمر بن الخطاب على ذكر عبارات فيها معنى الدعاء إلى جانب مخاطبته بأمير المؤمنين في حين كان الخليفة يخاطبه بوصفه نائبا عنه، وفي ذلك دلالة على حرص عمرو بن العاص على الشكل المثالي لمركزية الحكم، وأمدنا شمس الدين الدمشقي[101] بوثيقتين هامتين فيهما من الدلالة ما يؤكد طبيعة العلاقة بين الخليفة عمر بن الخطاب ونائبه في مصر، أولاهما كتاب بعث به الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، وجاء فيه ما نصه (أما بعد ياعمرو، إذا أتاك كتابي فابعث إليّ جوابه تصف لي مصر ونيلها، وأوضاعها وما هي عليه حتى كأنني حاضرها)، في حين تكشف الوثيقة الثانية عن حرص عمرو بن العاص في أن يحمل جوابه عبارات تناسب قدر الخليفة، وتؤكد تبعيته لمركز الخلافة، فجاء في هذه الوثيقة ما نصه (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد يا أمير المؤمنين فإنها تربة غبراء وحشيشة خضراء بين جبلين...) وأورد أبو المحاسن[102] نص الجواب بشيء من التغيير بما يفيد أن عمرو أعاد على الخليفة جواب كتابه ما نصه (ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر، اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر...).

والأمر الجدير بالاعتبار أن عمرو بن العاص تقلد الولاية العامة في مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطاب دون أن ينازعه فيها أحد، فأورد البلاذري[١٠٣] أن عمرو بن العاص كان يجمع بين ولايتي الحرب والخراج (فأراد عثمان[١٠٤] أن يجعل عمرا على الحرب وعبد الله[١٠٥] على الخراج، فأبى ذلك عمرو، وقال أنا كماسك قرني البقرة... فولى ابن سعد مصر)[١٠٦].

ويذكر ابن عبد الحكم أن الخليفة عمر بن الخطاب تُوفي وعلى مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الأرض وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على الصعيد، الأمر الذي يفتقر إلى الدقة ولا ينقض الصحيح من أن عمرو بن العاص كان الرئيس الأعلى وكانت له ولاية مصر كلها[١٠٧].

وصفوة القول، أن ما كان يقوم به عمرو بن العاص من مهام في تصريف حكمه قد جاء من حيث كونه نائبا للخليفة وتابعًا لمركز الخلافة، ويشكل مظهرا من مظاهر نظام الحكم الذي ساد عهد الخلافة الراشدة ويدعمه المراسلات المتبادلة بين عمال الولايات والخليفة في حاضرة الدولة.

• • •

الهوامش

١ - ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك، جـ١، ص ٣٣٥.
٢ - ابن الأزرق: المصدر نفسه والصفحة.
٣ - انظر: حول شخوص خالد بن الوليد إلى الشام (البلاذري: فتوح البلدان، صفحة ١١٨ - ابن خلدون: العبر، جـ٢، صفحة ٨٤، ٨٧).
٤ - حسين مؤنس: كتاب تاريخ الحضارة، جـ٢، ص ٣٣.
٥ - حول جهود عمرو بن العاص في مواجهة الحصون البيزنطية في الشام، انظر: (البلاذري: المصدر نفسه، صفحات ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٦هـ، وابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ١٠٥ و١٠٦.
٦ - فتوح مصر: صفحة ٧٦.
٧ - الخطط، جـ١، ص ٢٩٨.
٨ - فتوح مصر، صفحات ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩.
٩ - حول أسانيد ابن لهيعة صاحب هذه الرواية، انظر ابن قتيبة: المعارف صفحة ٥٠٥.
١٠ - إبراهيم أحمد العدوي: مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية، صفحة ١١ و ١٢.
١١ - القرآن الكريم: سورة قريش - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ١، صفحة ٢٠١.
١٢ - ابن هشام: سيرة النبي ﷺ جـ١، ص ١٤٧.
Lammens: La Mecque a la Veille de l'hegire; P. 26.
١٣ - إبراهيم أحمد العدوي: المرجع نفسه، ص ١١.
١٤ - حسين مؤنس: المرجع نفسه، ص ٣٣٠ - ٣٣١.
١٥ - ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، صفحة ٢٨.
١٦ - ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ٨٥.
١٧ - البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٤٤.
١٨ - البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٢٣، ١٢٤.
١٩ - ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ٨٦.
٢٠ - البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٤٤ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٧هـ.
٢١ - الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجنوب قرب مرج الصفر، انظر: (البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٤٤ - ابن قتيبة: المصدر نفسه، ص ١٨٢) ومكانها اليوم مرتفعات الجولان

الحالية، واختلف في قدوم الخليفة عمر بن الخطاب الجابية، وقيل بل عاد بعد فتح بيت المقدس حتى أتى الجابية سنة ١٨هـ والصحيح أن الخليفة عمر بن الخطاب قدم الشام أربع مرات، مرتين في سنة ١٦هـ، ومرتين سنة ١٧هـ، ولم يدخلها في الأولى، ونشير الأدلة على أنه قد اتخذ قراره بفتح مصر في الجابية سنة ١٧هـ بعد أن أتم فتح فلسطين (البلاذري: المصدر نفسه، صفحة ١٤٤ و ١٤٥ و٢١٤، ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٧٦ و ٨٠ ـ المقريزي: الخطط، جـ١، صفحة ٢٨٧).

٢٢ ـ البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٤٤ ـ الطبري: المصدر نفسه، حوادث سنة ١٧ هـ.

٢٣ ـ إبراهيم أحمد العدوي: المرجع نفسه، ص ١٢.

٢٤ ـ هكذا اشتهر عند العرب، واسمه المعروف «آريتيون».

٢٥ ـ الطبري: المصدر نفسه، جـ٣ ص ١٥٣ ـ ١٥٥، إبراهيم العدوي: المرجع نفسه، ص ١٢.

٢٦ ـ الطبري: المصدر نفسه، جـ٣، ص ١٥٣ ـ ١٥٥، ابن كثير: المصدر نفسه، ج٧، ص ٨٤.

٢٧ ـ الطبري: المصدر نفسه، جـ٣، ص ١٥٣ ـ ١٥٥ ـ ابن كثير: المصدر نفسه، جـ٧، ص ٨٤.

٢٨ ـ ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٨١ ـ المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٢٨٧.

٢٩ ـ ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٨٣ ـ المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٢٨٨.

٣٠ ـ ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، صفحة ٨٣ ـ المقريزي: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٨٨.

٣١ ـ ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، صفحة ٨٣ ـ المقريزي: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٨٨.

٣٢ ـ يقصد عمرو بن العاص ويشير اسم العلم «عبد الله» إلى عبد الله بن عمرو.

٣٣ ـ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، جـ٣، ص ٢ و٣ ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ٦٣.

٣٤ ـ ابن حجر: المصدر نفسه والصفحة.

٣٥ ـ ابن حجر: المصدر نفسه والصفحة ـ أبو المحاسن: المصدر نفسه، جـ١، ص ٦٤.

٣٦ ـ ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٨٠ وما بعدها ـ الطبري: المصدر نفسه، جـ٣، ص ١٩٥ ـ هذه الروايات عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق وأخرى عن أحمد بن ثابت عن إسحاق ابن عيسى، وأخرى عن الواقدي عن ابن سعد، (الطبري: المصدر نفسه، جـ٣، ص ١٩٥ وما بعدها).

٣٧ ـ بناه الإمبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧م) وسماه العرب قصر الشمع أو الحصن (المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٢٨٨).

٣٨ ـ الطبري: المصدر نفسه، جـ٣، ص ١٩٥ و ١٩٦ ـ المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٢٩٨.

٣٩ ـ ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ١٠٦ ـ الطبري: المصدر نفسه، ص ١٩٦.

٤٠ ـ حنا النقيوسي

Chronique de Jean Eveque de Nikiou, pp. 555 - 557.

٤١ - البلاذري: المصدر نفسه، صفحة ٢١٤.
٤٢ - المعارف، صفحة ١٨٢.
٤٣ - الكامل في التاريخ، جـ٢، ص ٣٩٦.
٤٤ - البداية والنهاية، جـ٧، ص ١٠٧.
٤٥ - العبر، جـ٢، ص ١١٤.
٤٦ - الخطط: جـ١، ص ٢٩٨.
٤٧ - ابن كثير: المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٠٧.
٤٨ - الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٢، ص ٣١، ٣٢.
٤٩ - ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ١١٤.
٥٠ - الطبري: المصدر نفسه، جـ٣، ص ١٩٥ - ابن كثير: المصدر نفسه، جـ٧، ص ١٠٦.
٥١ - المصدر نفسه، ص ٢١٤.
٥٢ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٨٠.
٥٣ - العبر، جـ٢، ص ١١٤.
٥٤ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، صفحة ٢٣٩.
٥٥ - الطبري: المصدر نفسه، جـ٣، صفحة ١٩٩ - سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام، صفحة ١٧.
٥٦ - الطبري: المصدر نفسه، جـ٣، ص ١٩٩ - ابن الأثير: المصدر نفسه، جـ٢ ص ٣٩٦ - القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص ٣٣٤.
٥٧ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ١٠٧.
٥٨ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٢٢٧.
٥٩ - حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ١، ص ٤٦٤.
٦٠ - حسن إبراهيم: المرجع السابق والصفحة.
٦١ - ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ١٠٧ و٢٢٧ - البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٨، و ٢٢١، ٢٢٥-٢٢٧.
٦٢ - الطبري: المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤١٤.
٦٣ - الطبري: المصدر نفسه، ص ٤٣١ - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، جـ٣، ص ٣ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ٦١.
٦٤ - المصدر نفسه، ص ٢١٤.

٦٥- ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٨١، ٨٣.
المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٢٨٧، ٢٨٨ من ذلك كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو ابن العاص عند سيره إلى مصر ويظهر فيه مخاوفه ومما جاء فيه (سر وأنا مستخير الله في سيرك، وسيأتيك كتابي سريعا إن شاء الله تعالى فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها، فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامضي لوجهك، واستعن بالله واستنصره، فسار عمرو بن العاص من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار الخليفة - رضي الله عنه - الله، فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك عمرا الكتاب، إذ هو برفح...)
انظر: ابن عبد الحكم المصدر نفسه، ص ٨١- المقريزي: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٨٧).
٦٦- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢١.
٦٧- حسين مؤنس: كتاب تاريخ الحضارة المصرية، صفحات ٢٤٣ و ٢٤٥.
٦٨- إبراهيم أحمد العدوي: مصر الإسلامية، ص ٣٧-٤٤.
٦٩- المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤٣١.
٧٠- المصدر نفسه، ص ٦٥.
٧١- الطبري: المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤١٢. - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٣، ص ٥٦.
٧٢- المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤١٢.
٧٣- الماوردي: الأحكام السلطانية، صفحة ٣٠.
٧٤- الماوردي: المصدر السابق، صفحة ٣٠.
٧٥- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢٥ و ٢٢٧- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص ٥٦٧ - نشر دار بيروت، بيروت سنة ١٣٨٥هـ.
٧٦- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٧-٢١٨- ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص ٥٦٦ دار بيروت - بيروت - سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
٧٧- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ٧٣ و ٧٤.
٧٨- المصدر نفسه، ص ٢١٨.
٧٩- الكامل في التاريخ، جـ٣، ص ٢٠.
٨٠- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢١.
٨١- البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢٢.
٨٢- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ٦٥.
٨٣- الكندي: الولاة والقضاة، ص ٣٠٠-٣٠١.

٨٤ـ سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٨٩.
٨٥ـ البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢٢٥ و ٢٢٧.
٨٦ـ البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٥.
٨٧ـ الطبري: المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤١١.
٨٨ـ المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٣٦٣.
٨٩ـ الطبري: المصدر السابق، والصفحة.
٩٠ـ الواقدي: فتوح الشام، جـ ٢، صفحات ٢٢٨ ـ ٣٠٨.
٩١ـ البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٦
٩٢ـ البلاذري: المصدر نفسه والصفحة.
٩٣ـ البلاذري: المصدر نفسه والصفحة.
٩٤ـ البلاذري: المصدر نفسه، ص ٢١٦
٩٥ـ البلاذري: المصدر نفسه ص، ٢٢٢، ٢٢٤.
٩٦ـ صار ذلك اللقب من ألقاب الخلفاء العامة منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب وهو من الألقاب المركبة على لقب أمير، وثاني ألقاب الخلفاء ظهورا بعد لقب خليفة، وأول من لقب به الخليفة عمر ابن الخطاب (حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، صفحة ١٩٤).
٩٧ـ حسن الباشا: المرجع نفسه والصفحة.
٩٨ـ صبح الأعشى: جـ٦، صفحة ٤٧٧.
٩٩ـ المصدر السابق والصفحة.
١٠٠ـ يقصد مصر.
١٠١ـ كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، صفحة ١٠٩، ١١٠.
١٠٢ـ النجوم الزاهرة: جـ١، صفحة ٣٢، ٣٣.
١٠٣ـ المصدر نفسه، ص ٢٢٥.
١٠٤ـ يقصد الخليفة عثمان بن عفان الذي تولى الخلافة سنة ٢٣هـ خلفا للخليفة عمر بن الخطاب.
١٠٥ـ يقصد عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي آلت إليه ولاية مصر سنة ٢٣هـ في عهد الخليفة عثمان ابن عفان.
١٠٦ـ تشير هذه العبارة إلى أن الخليفة عثمان بن عفان ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح بدلا من عمرو ابن العاص.
١٠٧ـ حول هذه الجزئية أنظر سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام، صفحة ٢٦.

المراجع

١ - القرآن الكريم.
٢ - ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)
الكامل في التاريخ، الجزء الثاني، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، والجزء الثاني، نشر دار بيروت، بيروت ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م، والجزء الثالث نشر دار بيروت، بيروت ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
٣ - إبراهيم أحمد العدوي، «مصر الإسلامية، مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية»، القاهرة ١٩٧٥م.
٤ - البلاذري (ت ٢٩٧هـ)
فتوح البلدان، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٥ - الطبري (ت ٣١٠هـ)
تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث، القاهرة ١٣٥٧هـ-١٩٣٩م، والمجلد الثاني نشر مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٦ - حنا النقيوسي (ت أواخر القرن الأول الهجري)
تاريخ
Chronique de Jean Eveque de Nikoue, Teste Ethiopein Oublie et Troduit par MH, Zotenberg (Notices et Extraits de Manuscrits de la Bibliotheques 2 Paris, 1983).
٧ - ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)
الاصابة في تمييز الصحابة، الجزء الثالث، ط أولى، السعادة، بيروت، ١٣٢٨هـ.
٨ - ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٦هـ)
«شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، الجزء الأول، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٩ - حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، ١٩٧٨م.
١٠ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. الجزء الأول، القاهرة ١٩٨٥م.
١١ - حسين مؤنس: كتاب تاريخ الحضارة المصرية (تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون)، المجلد الثاني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر)، وزارة الثقافة، القاهرة.
١٢ - ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)
«العبر وديوان المبتدأ والخبر»، الجزء الثاني، بيروت، ١٣٣٩هـ-١٩٧٩م.

١٣ - ابن الأزرق (ت ٨٩٦هـ)
«بدائع السلك في طبائع الملك «تحقيق علي سامي النشار، الجزء الأول، بغداد، ١٩٧٧م.
١٤ - سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام، القاهرة ١٩٤٧م.
١٥ - ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)
«فتوح مصر» تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩١١م.
١٦ - شمس الدين الدمشقي (من أعلام القرن السابع الهجري).
كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشر أغسطس بن يحيى، المطبعة الأكاديمية الامبراطورية، مطربورغ ١٨٦٥م.
١٧ - ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)
المعارف، نشر ثروت عكاشة، ط ٤، دار القاهرة.
١٨ - القلقشندي (ت ٨٢١هـ)
«صبح الأعشى في صناعة الإنشا «جزء ١١ نسخة مصورة من الطبعة الأميرية، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الجزء ١٣، القاهرة، ١٩١٩م.
١٩ - ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية، الجزء السابع، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٥١هـ - ١٩٣٣م.
٢٠ - الكندي (ت ٣٥٠هـ)
«الولاة والقضاة» ، بيروت ١٩٠٨م.
٢١ - Lammens (H) La Mecque a la Veille de L'Hegire, Beyrouth, 1924.
٢٢ - الماوردي (ت ٤٥٠هـ)
«الأحكام السلطانية»، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
٢٣ - أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٣م.
٢٤ - المقريزي (ت ٨٤٥هـ)
«المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار»، الجزء الأول، بولاق ١٢٧٠هـ.
٢٥ - ابن هشام (أبو محمد عبد الملك الجعافري الحميري البصري)
«سيرة النبي ﷺ»، راجع أصولها محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، طبعة حجازي.
٢٦ - الواقدي (ت ٢٠٧هـ)
فتوح الشام، الجزء الثاني، طبعة دار الجيل، بيروت.
٢٧ - اليعقوبي (ت ٢٨٢هـ)
تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، بيروت ١٣٨٥هـ.